مجلة إعجاز الدولية للبحث والتأمل

إدارة المخاطر بين الشك واليقين
في كتاب الله عزَّ و جلَّ

د. سامر مظهر قنطقجي
رئيس جامعة كاي KIE University
رئيس تحرير مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمي
رئيس مركز أبحاث فقه المعاملات الإسلامي

ملخص:

خُلق الإنسان في هذه الحياة مُكلَّفاً برسالةٍ محدّدة، أُخفي عنه عدّة أشياء، وطُلب منه الإيمان بالله تعالى (طوعاً لا كُرهاً)، وهذا إنما بمثابة (اعتقادٍ غيبيّ)، يجب أن يتبعه عملٌ يصدِّقه؛ فالإنسان ينتظره موت مؤكّد، أما احتمال حصول ذلك الموت فلا يُعلم عنه شيئاً. ويمثل الموت خطراً داهماً؛ ويتساءل الإنسان عن مصيره بعد الموت؛ فذاك المصير لا يعلم عنه شيئاً. كما غُيّب عن الإنسان رزقُه، وغُيّب عنه ما سيأتيه من ذُرّيّةٍ، وكل ذلك هو بعض ممّا قد يقع له في مستقبلٍ غامض عنه.

وإذا عمَّ هذا الخطرُ الكثيرَ من الناس فلمْ يؤمنوا باللِه تعالى ربّاً، فقد أعدَّ لهم عذاباً في الدنيا كـ (الفتن والابتلاء)، وسيصلَون في الآخرة ناراً حامية خالدِين فيها. كما توعَّد اللهَ الناسَ الغافلين - في الدنيا - سواء أكانوا (مذنبِينَ أمْ ساكتِينَ عن الخطأ بما فيهم المصلِحون)، بعذابٍ أشملَ وأكبر لا يُبقي ولا يَذر

الكلمات المفتاح: احتمال وقوع، المخاطر، الظنُّ، الشكُّ، أداة التخطيط، الترهيبُ و الترغيبُ

Risks Management

Doubt Between&Quran Holy in Soreness

Abstract :

The creation of man in this life is charged with a specific message, several things have been hidden from him, and asked him to believe in God (voluntarily and not hate), this is only a "metaphysical belief", his faith must be followed by a work that he believes, Man is waiting for certain death, The probability of death is unknown. Death is a grave danger; Man wonders about his fate after death; That fate knows nothing about him. As the absence of man earned, and the absence of what will come from children, All this is some of what might happen to him in a mysterious future.

And if this danger is too many people do not believe in God, God has prepared for them a punishment in the world as (sedition and arrogance), In the Hereafter, they will receive a fiery fire. As God promised people who are indifferent - in this world - whether they (guilty or silent of the wrong, including reformers), with a greater and greater punishment that does not remain and does not warn

Keywords: probability, risk, suspicion, doubt, planning tool, intimidation and motivation

الخطر حدث مستقبليٌّ قد يقع؛ فالحدث مجهولٌ في عالم الغيب، أمّا سببُ جهالتِه فهي (عدم المعرفة أو نقصها)؛ لذلك يُقاس الخطر بدرجة احتمال وقوعه من عَدمه.

لقد خُلق الإنسان في هذه الحياة مُكلَّفاً برسالةٍ محدّدة، أُخفي عنه عدّة أشياء، وطُلب منه الإيمان بالله تعالى (طوعاً لا كُرهاً)، وهذا إنما بمثابة (اعتقادٍ غيبيّ)، يجب أن يتبعه عملٌ يصدِّقه؛ فالإنسان ينتظره موت مؤكّد، أما احتمال حصول ذلك الموت فلا يُعلم عنه شيئاً. ويمثل الموت خطراً داهماً؛ ويتساءل الإنسان عن مصيره بعد الموت؛ فذاك المصير لا يعلم عنه شيئاً. كما غُيّب عن الإنسان رِزقُه، وغُيّب عنه ما سيأتيه من ذُرّيّةٍ، وكل ذلك هو بعض ممّا قد يقع له في مستقبلٍ غامض عنه.

لقد ذكر الخالق عز وجل في كتابه العزيز بعضَ الحقائق والإشارات عن تلك الغيبيّات، وأعلم أنبياءه صلوات الله عليهم وسلامه ببعض ذلك فذكروه للناس (تحذيراً وتنبيهاً). ثم أوضح المولى عزّ وجلّ جزاء عدم التحوُّط لتلك الغيبيات في كتابه العزيز؛ فمَن لم يؤمن بالله ربّاً واحداً جزاؤه نارٌ حامية يكون فيها خالداً، ومَن فعل أشياء معيَّنة كان له جزاءاً خاصّاً في قبره، أو يوم الحساب، أو على الصراط؛ لذلك وجب على الإنسان العمل على تفادي تلك المخاطر لما فيها من مهالكَ عظيمة.

ويُعتبر الابتلاء بالخوف آية من آيات الله؛ حيث يمتحن اللهُ به عباده، كما يمتحنهم بأشياءَ أخرى؛ فـ (الحياة الدنيا حياة اختبار وتمحيص)، يقول الله تعالى: وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) البقرة؛ فمِن الابتلاء ما يكون بنقص الأمن، ثم بالجوع، ثم يكون بنقص المال، وبالموت، ونقص الثمر والزرع، وهذه حاجات أساسية. وأشار الله تعالى لإشباع هذه الحاجات الأساسية بترتيب، فأولًا يكون سدُّ حاجة الجوع، ثم الأمن من الخوف، يقول الله تعالى في سورة قريش: الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤).

ويُعلِّمنا الله تعالى التحوُّط بضرب من الأمثلة؛ فهناك مَن إن تأمنه مالاً كثيراً يُؤدِّه إليك، وهناك مَن إن تأمنه بدينارٍ واحد لا يؤدّه إليك؛ إلّا ما دُمت عليه قائماً، والقيام لا يكون إلّا بأخذ التدابير اللازمة لضمان عودة المال دون جحْده من الآخذ، يقول الله تعالى: وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ آل عمران.

ولغرض إدارة المخاطر، قسم الفقهاءُ حاجاتِ البشر واحتياجاتهم إلى: (ضروريّاتٍ وحاجيّات وكماليّات)؛لتفادي ما يُهدِّد البقاء البشري، وليدفع الإنسانُ الضرر عن نفسه للمحافظة عليها عند الضرورة، وله أن يُشبع حاجاتِه الضرورية الماسة بما يُبقيها على قيد الحياة؛ فإن أصابها نقص شُرّع له تأمينها ولو اضطر لمخالفة شرع الله، يقول الله تعالى في سورة البقرة: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣). وكخطّ دفاعٍ ثانٍ شُرع له دفعُ المشقّة عن الضروريات بالحاجيات كمرتبةٍ ثانية، وبالكماليات كمرتبةٍ ثالثة؛ ذلك إنما لحماية البشر. فمَثلاً: إنّ قتْل الإنسان محرَّم أكان قتلا مباشرا أمْ غير مباشر (كالتجويع مثلا)؛ فالمحافظة على حياته ضرورة، كما أنّ إجهاده وإتعابه وتعذيبه غير جائز؛ لأن ذلك يؤذي جسده ولو لم يقتلْه التعبُ والإجهاد؛ فهذه حاجةٌ، كما أن سبَّه وشتمه غير جائز فذلك لا يؤذيه جسديا؛ بل يؤذيه معنوياً، وهذه من كماليَّات عيشه بكرامة. إنّ هذه الدرجات تدفع الخطر عن الإنسان وتحفظ له مقوّمات عيشٍ كريم.

أمام تلك المخاطر تجد الإنسان متشوّقا لمعرفة المستقبل وكشف أسراره؛ فيلجأ البعض لـ (لمقامرة) لتحرّي هذا المستقبل والاطلاع عليه فيذهب بعضهم لـ (لعرَّافين والمشعوذين)، وآخرون يلجأون لـ (لأبراج والأفلاك)؛ لعلَّهم يجدون خَبَراً يُريحهم

ممّا يخشوه. ويلجأ البعض للاستعانة ببعض الأشياء لتدلَّهم على الخير والشرك (الأزلام)، يقول الله تعالى في سورة المائدة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠). والأزلام قِداحٌ كان الناس قبل الإسلام يستقسمون بها قبل الإقدام أو الإحجام عن أيّ شيء يجهلونه؛ فباعتقادهم أنهم يُديرونَ مخاطرَ محتملة مستعينين برمي القِداح مَثلاً؛ لتساعدهم على معرفة وتبين المستقبل، وهذا شِرْكٌ بالله تعالى، وقد أُمر الإنسان باجتنابه والابتعاد عنه. ومنهم من استعمل (التطيّر والتشاؤم) عندما اختبرهم الله تعالى بالقحط وقلَّة المطر، قال تعالى واصفاً قولهم: قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ النمل. وهناك من يحاول تجاهُل الأمرِ كلِّه، ظانّاً أنّ الدهر سيُبليه وسينتهي كلُّ شيء، فكانوا (دهريّين)، قال الله تعالى عنهم في سورة الجاثية: وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤).

ويلجأ البعض الآخر للتوقُّع والأمل بدراسة احتمالات وقوع الخطر وما يتعلَّق به؛ فيلجؤون إلى التقدير للتحوط من المخاطر، كيعقوب عليه السلام حينما طلب من أبنائه ألّا يدخلوا من بابٍ واحد؛ درءاً للخطر الذي قد يُصيبهم جميعَهم؛ فقد جاء في سورة يُوسُف على لسانِ يعقوب: وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧). ولم يكن قصدُ يعقوب عليه السلام تحاشي أمر الله؛ لأنه يعلم يقيناً ألّا مردَّ له بأيّ شكلٍ من الأشكال؛ لكنَّه بذلَ الجُهد في التحوُّط للخطر وهذا ما أُمر به الإنسان عموماً. وكذلك ظنَّ ابنُ نوحٍ أنّ صُعودَه للجبل سيعصمه من خطر الغرق؛ لكنّ الغرقَ أصاب جميعَ الكائنات باستثناء سفينة نوحٍ عليه السلام ومَن فيها فهذا أمر الله؛ لذلك لم يُسعِفْه صعود الجبل من الغرق، فأهلكه سوءُ تقديره، ومن ذلك قول المولى عز وجل عن (سوء التقدير) الذي يُودِي بصاحبه في سورة المدثّر: إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾. وقد ورد الحوارُ بين نوحٍ عليه السلام وابنه في سورة هودٍ: قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣)، وبذلك التقدير الخاطئ أهلكَ نفسَه ولم ينفعه أنه ابنُ رسولِ الِله. كذلك سأل قومٌ ذي القرنين أن يُعينَهم ببناء سدٍّ يحجزُهم عن قوم يأجوج ومأجوج؛ لدرء خطرهم، وذكر هذا الحوار في سورة الكهف: قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤)، فقام ذو القرنين بصناعة سدٍّ عظيم فصّل القرآن ذِكْرَه لتعليم الناس بيان قدرة وعِلم ذلك الرجل الصالح. كذلك كان فعلُ الخضِر الذي آتاه الله العلمَ في قَصص سورة الكهف من تعييب السفينة بخرْقِها؛ لينجو أصحابها المساكين من ظُلم الملِك الغاصب، وبناء الجدار لحماية كنز الغلامَين اليتيمين، وما ذلك إلّا شكلٌ من أشكال التحوُّط لمخاطر مستقبلية متوقَّعة.

يُلاحظ أنّ كلَّ ما سبق ذِكْرُه من أفعالٍ تحوطية قد سبقه علمٌ آتاه الله بعضَ عباده؛ كقوله تعالى: ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ (يوسف ١٠٢)، يُستدلُّ من ذلك على أنّ نبأ الغيب قد يُوحيه اللهُ تعالى لبعض عباده ويؤتيهم إيّاه.

إذاً إن إدارة المخاطر هو: التحوط لوقوع خطر من خلال توقعات مدروسة، لذلك هو عِلمٌ يستند في توقُّعاتِه على وفْرة وصِحَّة البيانات والمعلومات؛ سواء منها التاريخية أو الميدانية الحاليّة، ثم يكون بفهْم ذلك واستيعاب سَنَنِه؛ للتمكُّن من قراءة المستقبل بصورة أفضلَ. وقد ذكر الُله تعالى لنا قَصص وأخبار أقوامٍ وأُمم سبقونا لاستنباط العِبَرِ منها وفهْم المآل الذي سيكون فيما لو سِرنا على منهجهم نفسِه، فإن اعتبرنا مِن قصصهم واستوعبْنا حقيقة هذا الكون فهمْنا أنّ الحياة تسير على سَننٍ وضعها خالقُ هذا الكون وصانعُه؛ فمن أراد النجاة تمسَّك بالمنهج الصحيح؛ ليحيا حياةً طيّبة ليلقى مصيراً مِثلَه؛ فإن أَبَينا؛ فإن ما أصاب تلك الأقوامَ والأمم مثالٌ حيّ على مرّ العصور، وقد طلب مِنّا الُله تعالى أن ننظر في آثارهم التي تركوها ليتبصَّر مَن يتبصر، وليحس مَن يحسّ، وليفهم من يفهم.

وسوف نتناول بعض تلك الدروس والعبر لتكون دروساً لمن أراد الاعتبار، ولنستقي منها إدارة المخاطر وأسَسها.

لقد استخدم القرآن الكريم عباراتٍ تدلُّ على الخطر والتحوُّط منه لتحديده وقياسه، ومِن ذلك: (الخرْص، والتقدير، والعدُّ، والإحصاء، والمحاسبة، والقدْر، والغَرر، والخطر، والمقامَرة، والتوقُّع، والأمل، والاحتمال، والجزْم، والثقة، والشَّكّ، والرَّيب، والدرْء، والتُّقاة، واليقين، وحقّ اليقين، وعَين اليقين).

وسوف نتناول بعضها بالأمثلة والبيان. أمّا الغاية فهي؛ فهمُ إدارة المخاطر وأسسها، ثم استثمار ذلك في بيان الاقتصاد الذي لا يكون إلّا بالتقدير، الذي هو (أداة التخطيط)؛ فهدف الخطط تحقيق الكفاية منعاً لأيّ نقصٍ، وتحقيق الكفاءة للوصول لأفضل استخدامٍ.

الغيب:

إنّ كتاب الله بمجمَلِه هو علمٌ يقيني ليس فيه شكٍّ أو ريب، فهو يهدي المتقين الذين من صفاتهم أنهم يؤمنون بالغيب، يقول الله تعالى: ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ البقرة.

لذلك سعى الإنسان جاهداً إلى كشف الأمور المغيَّبة عنه، وقد ذكرت الآية ٣٤ من سورة لقمان تلك الأمور المغيَّبة، قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ.

لذلك فالأمور المغيبة هي خمسة:

موعد الساعة؛ أيّ متى يوم القيامة؟

نزول الغيث، والمقصود به مطر الغيث.

ماهيَّة وحالة المولود الذي هو في رحم أمّه؟

ماذا سيكسب الإنسان في غده؟

أين ومتى سيموت؟

إنّ العلم بتلك الغيبيات موجود عند خالق الإنسان وصانع الكون والمتحكِّم به.

الخطط مكتوبة مسجلة:

الغيب ليس أمرا (شفهياً أو عفويّاً)؛ بل هو مكتوب في سجلٍّ مرقوم، وهذا يعلمنا الانضباط؛ فالخطط المستقبلية لا ينفع معها أن تبقى محفوظةً في الذاكرة؛ بل لابد من (تدوينها وحفظها)؛ لتكون مكتوبة، يشمل ذلك خططَ التحوُّط، يقول الله تعالى: أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ القلم. ويُضاف للكتابة والتسجيل عنصر الشهادة لمزيدٍ من (التوثيق والرقابة والموضوعية)، والله تعالى غنيٌّ عن هذا كلِّه؛ لكنه يُعلِّم عبادَه المكرَّمين، فيقول لهم: وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ يونس.

فالرزقُ - مَثلاً- عِلمُه عند الله تعالى مكتوبٌ مدوَّن في كتابٍ واضح مُبين، يقول الله تعالى: وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ هود.

والأجَلُ - أيضاً - عِلْمُه عند الله تعالى مكتوبٌ مدوَّن في كتابٍ واضح، يقول الله تعالى: وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ آل عمران.

إدارة المعلومات سرية ومحفوظة بإحكام:

إنّ عِلْمَ الغيب مخفيٌّ عن جميع الكائنات، يُطلع الله تعالى على بعضِه مَن أراد من عباده، ولشدة السِّرِّيَّة فإنّ الرسول الذي سيطلع على ذلك الغيب يُسلِّط اللهُ عليه رقابةً ترصده حتى يُبلّغ رسالته التي أُعلم بها؛ لأجل ذلك فإنّ الله محيطٌ بكلِّ ما لدى أولئك الرسل، والإحاطة تبدأ بـ (توفير البيانات بِعَدِّ كلِّ شيء وإحصائه).

ولمّا كانت إدارة المعلومات يجب أن تتمَّ بِسِرِّيَّةٍ حتى تتحقَّق الغايةُ منها، فلا يكفي منحُ الثقة مطلقاً للطرف الذي سيؤدي المهمَّة؛ بل لا بدَّ من إحكام الرقابة على أولئك العامِلِين، وعلى الرقيب أن يستخدم أدوات إحكام رقابته ليتحقق بأنَّ الرسول قد أتَّم عملَه. يقول الله تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ الجن.

وبما أنّ الكتابة قيدٌ؛ فإنّ الكتابة تمنع النسيانَ والتِّيه، والله مُنزَّه عن هذا كلِّه؛ لكنَّه ذكرَ لنا ذلك على لسان نبيِّه موسى عليه السلام ليعلِّمنا نحن البشرَ: قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ طه؛ ليكون هذا الكتاب حُجَّة على صاحبه.

ثم وزيادةً في إحكام الرقابة المستنديَّة فإنَّ لكلِّ إنسانٍ كتاب تُنسخ فيه أعمالُه، قال تعالى: هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ الجاثية.

وهذا السجلُ محرَّر على نُسختَين، تُحفَظُ الأصل عند الجهة الأعلى في الهيكل التنظيمي، وإنما ذكرَ الله تعالى ذلك لبيان دقَّةِ السجل؛ فالأصل محفوظٌ عِنده، أسماه (أمَّ الكتاب) كسجلٍّ أصلٍ لا تغيير فيه إلّا بما شاء هو وحدَه دون غيره، يقول الله تعالى: يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ الرعد.

كما في الكتاب إحصاءُ كلِّ شيءٍ، قال تعالى: وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ النبأ، وهذه دلالة على أن الإحصاء يكون بالكتابة لا بالحفظ شفاهة.

ولمزيد من الدِّقَّة والرقابة كان الكتاب مَرقُوماً، يقول تعالى: كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ المطففين، ويقول أيضا: كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ المطففين.

درجات الإيمان بالغيب:

انقسم الناس بشأن الغيب إلى قسمَين؛ قسمٍ آمنَ وأيقن به، وقسمٍ شكَّ وارتاب، فكان الشكُ نقيضَ اليقين؛ لذلك عبَّر القرآن الكريم عن يقين المؤمنين، وشكِّ غيرِهم بعباراتٍ عديدة، نُلخِّصها بأقسامٍ ثلاثة هي: (اليقين، والظنّ، والشكّ)، ولكلِّ منها درجاتٌ.

أولا: اليقين ودرجاته:

جاء في لسان العرب أن اليَقِينُ هو (العِلْمُ وإزاحة الشكِّ وتحقيقُ الأَمر)، وهو نَقيض الشكِّ؛ فالعلم نقيضُ الجهل، وعليه يُقال: عَلِمْتُه يَقيناً.

وقد جاءت كلمة اليقين لوصف إيمان المؤمنين بالغيب؛ فالإيمانُ اليقيني يكون:

- باليوم الآخر، كقوله تعالى: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ لقمان،
- بالموت، كقوله تعالى: وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ الحِجر.

ويصل أصحاب الفكر والبصيرة الذين اهتدوا إلى درجة اليقين بملاحظة آيات الله المنتشرة من حولهم، يقول الله تعالى

عنهم: وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ الذاريات.

أما الحق فهو غير اليقين؛ فهو (خالصُه وأَصَحُّه)؛ لذلك أَضاف الله تعالى الحقَّ إلى اليقين ليس إضافةَ الشيء إلى نفسه؛ بل إضافةَ البعضِ إلى الكُلِّ، يقول تعالى: كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ التكاثر.

فالعِلم أدنى الدرجات، ثم يعلوه (عِلم اليقين)، ثم (عَين اليقين)، أمّا أعلاها فـ (حقّ اليقين).

لقد ذكرَ اللهُ تعالى في سورة الواقعة حق اليقين بعد أن يصل الضالُّون والمكذِّبون حميمَ الجحيم فيُكابِدُونها ويتحقَّقون منها بالمباشرة والمواقعة، قال الله تعالى: فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ الواقعة. أمّا عين اليقين فيتحقَّق بِحاسَّة البصر؛ كقوله تعالى: ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ، بينما يتحقَّق علم اليقين بالخبر من خلال حاسَّة السمع فيستقر في القلب ويُصدِّقه؛ كقوله تعالى: كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ. وعليه فلليقين ثلاثُ درجاتٍ هي:

حقُّ اليقين، وهو أعلاها.

عَين اليقين،

عِلم اليقين.

واستخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم درجتَي (الشكِّ واليقين) في حديثه فقال: إذا شك أحدكم في صلاته فلم يدركم صلى أثلاثا أم أربعا؟ فليطرح الشك وليبن على ما استيقن i. لذلك أرسى الأئمَّة قاعدةً كُلِّيَّة نصُّها: (اليقين لا يزول بالشك)، وصفَها الإمام السيوطي بأنها تدخل في جميع أبواب الفقه، وأنّ المسائل المخرَّجة عليها تبلغ ثلاثة أرباع الفِقه وأكثرَii.

لذلك يَستخبِرُ المشركونَ في سورة يونس عن عذاب يوم القيامة، أحقٌّ هو؟: وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾، ويقول الله تعالى لرسوله صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقول لهم: نعمْ وربّي إنَّه لحقٌّ لا شكَّ فيه، وما أنتم بمُعجزي الله أن يَبعثكم ويُجازيكم، فأنتُم في قبضَته وسُلطانهiii. وإنّ جواب الشكِّ الذي يدور في أذهان الكافرين وتقولُه ألسنتُهم (استنكاراً أو استهزاءاً) كان جوابا قطعياً: بأنه حقٌّ لا شكَّ فيه، ويبدو أنّ مصدَر قولهم هو تمكُّنهم من الهرب (في هذه الدنيا)؛ لذلك هُم يَستنبِؤن.

وإنّ نظير هذه الآية - حسبَ قولِ الإمام ابن كثير - قولُه تعالى: زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ التغابُن، والزعم هو القول بالظنّ؛ لذلك كان الجواب على ذلك الظن جواباً قطعياً ذلك بأنهم سيُخرجون من قبورهم أحياء، ثم سيُخبَرون بأعمالهم، وذلك على الله يسير؛ فـ (الإعادةُ أسهل من الابتداء)iv، كما أخبرَ الله تعالى بذلك.

ثانيا: الظنُّ ودَرجاتُه:

الظنُّ غير الحقِّ، وسبَبه نقصُ العِلم وضَعفه، وهو لا يصلح للاتِّباع لمن أراد أن يصل للحقيقة؛ فلو كان العلم إناءاً يَتَّسِعُ لكميَّةٍ محدَّدة من سائل، فإنه كلَّما زاد العلم انخفضَ حجم الظنّ والعكس بالعكس؛ لذلك كان قولُ الله تعالى عمَّن يتَّبع الظنَّ أنّه مَبلغُهم من العِلم، ومعنى ذلك؛ أن لو زاد عِلمهم لانخفض ظنُّهم. يقول الله تعالى: وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٣٠﴾ سورة الجن.

والظنُّ مفيدٌ في البحث العلميّ؛ بل هو أهمُّ أداةٍ من أدوات تحقيقه للوصول للحقائق العلمية التي تُقارِبُ اليقيَن.
أمّا درجاتُ الظنّ فهي:
غَلَبَة الظنّ: ويكون عندما يبتعدُ عن حدِّ الشك باتجاه اليقين؛ أيّ: نحو الأعلى.
الظنُّ: ويكون عندما يُقارِبُ الشكَّ؛ أي (بين الإثبات والنفي).
ظن السَّوء: الوهم، ويكون عندما يبتعدُ عن حدِّ الشكِّ باتجاه الوهَم؛ أيّ: نحو الأسفل.

الظنُّ أداةٌ من أدوات المعرفة وطُرُقِ البحث فيها١٧:
خلق اللهُ تعالى الإنس والجنَّ وأسكنهم الأرض لعبادته فقال: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ الذاريات. فكيف يعبدونه دون أن يعرفونه؟؛ لذلك لا بُدَّ من توافر المعرفة كوسيلةٍ للتعرُّف على آلاء الله ونَعمائه.
إذاً المعرفة هي سبيل تحقيق الغاية التي خُلق الخَلق لأجْلها، وهي تُمثِّل المرحلة الأولى للعِلم، وتتمُّ بأدواتٍ كـ (العقل والحواس)؛ فالعقل بذاكرته وما زوّده الله به من خصائصَ هو المحرِّك والباعث لعملية التفكير التي سُتميَّز بها المعارفُ؛ إلّا أنّ العقل وأدواتِه منقطع عن محيطه، ولن يتلمَّس ما حولَه دون حواسٍ تنقل له ما يَجري خارجه؛ فـ (السمع والبصر واللمس والشمّ والذوق) كلها حواس موصولة بالدماغ بأعصابٍ مُعقَّدة التركيب مهمَّتها نقل البيانات إلى (العقل أو الدماغ) الذي هو (مصدرُ التفكير والذكاء والذاكرة والإدراك). وبتفاعل البيانات المدخَلة مع محفوظاتِ الذاكرة وطِبقاً لإدراكه ودرجة ذكائه ستتشكَّل المعرفةُ. وبمرور الوقت تزداد المعارفُ وتتراكم؛ فمنها ما يبقى في الصدور، ومنها ما يُنقل إلى السطور، وستكون المعارف المخطوطة على الورق أو المحفوظة بأيّ وسيلةٍ أُخرى مُتاحةً للعقل ينهلُ منها متى شاء.
فإذا ما قُلنا للوهلة الأولى أنّ الكون المحسوس هو مصدر المعرفة لَتساوى بذلك الإنسانُ والحيوان لاشتراكهما بالحواس المذكورة، وبما أنّ الله تعالى ميّز الإنسان بـ (العقل) فإنّ التفكير والاستنباط هما أداتان مساعدتان في عملية تحليل البيانات الواردة إليه للوصول إلى قراراتٍ ذكيّة؛ سواء اكتفى العقل بالاستقراء والتجربة أم أدخل القياس وأعملَ الفِكر بالاستنتاج؛ لذلك فالكون المحسوس هو مصدرٌ ثانوي للمعرفة، وهو مخلوقٌ من قِبَلِ (خالقٍ مُبدِع خبيرٍ عليمٍ). وهذا شأن الإنس والجن.
إذاً لا بُدَّ من مصدرٍ أساسٍ للمعرفة، وكذلك لا بُدَّ أنّ خالق كلِّ شيء هو ذلك المصدر الأساسُ أو الأولي للمعرفة، وقد أعلمَنا اللهُ تعالى أنّ أوَّل مخلوقٍ على البسيطة هو آدم عليه السلام، تلقَّى العلمَ من خالقه عز وجل، وبه ميزه عن سائر المخلوقات بمَن فيهم الملائكة، يقول تعالى: وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ البقرة.
أمَّا عن ذُرِّيَّة آدمَ عليه السلام فهم يُولَدُونَ دون علمٍ؛ لكنَّهم يمتلكون الحواس التي بها يكتسبون العلم، يقول الله تعالى: وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ النحل.
ثم أرسل رُسلَه إلى الناس لتهديهم إليه، يقول الله تعالى: وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ الشورى.

وبناءً عليه فمَصادِرُ المعرفة، مصدران:

القرآنُ الكريم والسُّنَّة الشريفة: وهُما صُلَب العِلم، حسب وصفِ الغزاليّ. يقول الله تعالى: مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ (الأنعام: ٣٨)، وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا (الحشر: ٧)، لثبوتِ نصوص القرآن الكريم بالتواتر كما سيمرُّ معنا لاحِقاً إنْ شاء الله.

الكون المحسوس: وهو مُلَح العِلم، حسب وصف الغزاليّ، وقد وردت آياتٌ كثيرة في سُور القرآن تشير إلى ذلك؛ فالناس دعيت لـ (النَّظر والتعقُّل والتفكُّر والتفقُّه والسمع والتذكُّر)، يقول الله تعالى:

قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (يونس: ١٠١)،

لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (الجاثية: ٥)،

لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (الجاثية: ١٣)،

لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا (الأعراف: ١٧٩)،

لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (النحل: ١٣).

وقد قسّم الغزاليّ العِلم إلى (عِلْمٍ يقينيّ، وعِلْم ظَنِّيٍّ ليس يقينيّاً)vi:

العِلْمُ اليقينيّ:

هو الذي ينكشف فيه المعلومُ انكشافا لا يبقى معه ريبٌ، وليس فيه مكان للغلط والوهَم، ولا يَتَّسِعُ القلب لتقدير ذلك، وهو ما يرقى إلى درجة الحقائق العلمية. وهذا مؤدَّاه:

أنَّ الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مُقارِناً لليقين.

أن الدليل ضِدَّه لا يؤدّي للشكِّ بالمعرفة، والدليل في هذه الحالة قطعيٌّ؛ أيّ: من القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية المطهّرة.

وهذا القِسم من المنهج ثابتٌ عبر الزمان والمكان، وأورد الشاطبيُّ ثلاثةَ عشرة مقدِّمة في "موافقاتِه" تُشكِّل مُقدِّمات الاستدلالvii، هي:

المقدِّمة الأولى: أصول الفقه قطعية لا ظنية.

المقدِّمة الثانية: الأدلة المستعملة في أصول الفقه قطعية، عقلية كانت أو عادية أو سمعية.

المقدمة الثالثة: الأدلَّة السمعية لا تُفيد القطعَ بآحادها، لتوقُّفها على مُقدِّماتٍ ظنِّيَّة، ويحصل القطع إذا تكوّن من مجموعها ما يُشْبِه (التواترَ المعنويّ).

المقدِّمة الرابعة: كل مسألةٍ مرسومة في أصول الفقه لا ينبني عليها (فروعٌ فقهية أو آدابٌ شرعية) أو لا تكون عونا في ذلك فوضعها في أصول الفقه عارية، والذي يُوضِّح ذلك أنّ هذا العلم لم يختصَّ بإضافته إلى الفقه إلاّ لكونه مفيداً له ومحقِّقا للاجتهاد فيه فإذا لم يُفِدْ ذلك فليس بأصلٍ له.

المقدِّمة الخامسة: الاشتغال بالمباحثِ النظرية التي ليس لها ثمرةٌ عملية مذموم شرعاً؛ فكلٌّ مسألةٍ لا ينبني عليها عملٌ فالخوضٌ فيها خوضٌ فيما لم يدلَّ على استحسانه دليلٌ شرعيّ، وأعني بالعمل عملَ القلب وعمل الجوارح من حيث هو مطلوبٌ شرعاً.

المقدِّمة السادسة: إنّ التعمُّق في التعاريف والأدلَّة والبُعد بهما عن مدارك الجمهور ليس من هَدي الرسول ولا السلف الصالح.

المقدِّمة السابعة: العلم ليس مقصودا لِذاتهِ؛ بل للعمل به؛ حتَّى العِلم بالله تعالى لا فضلَ فيه بلا عملٍ به وهو الإيمان.

المقدِّمة الثامنة: العِلم الذي هو العلم المعتبَر شرعاً، هو العلم الباعث على العمل الذي لا يُخلِّي صاحبه جاريا مع هواه كيفما كان؛ بل هو المقيّد لصاحبه بمقتضاه الحامل له على قوانينه (طَوعاً أو كَرهاً).

المقدِّمة التاسعة: من العلم ما هو من (صُلَب العلم) ومنه ما هو (مُلَح العلم) ومنه ما ليس بـ (صُلَبه ولا مِلَحه)، والأوَّلُ هو الأصل والمعتمَد وذلك: ما كان قطعيًّاً أو راجعاً لأصلٍ قطعيٍّ، والثاني: ما لم يكنْ قطعيّاً ولا راجعاً إلى أصلٍ قطعيٍّ؛ بل إلى ظنّيٍّ، والثالث ما لم يرجع إلى أصلٍ قطعيٍّ ولا ظنّيٍّ، وهذا ليس بعِلم؛ لأنّه يَرجِعُ على أصله بالإبطال.

المقدِّمة العاشرة: إذا تعارضَ النقلُ والعقل على المسائل الشرعية فعلى شرطِ أن يتقدَّم النقلُ فيكون متبوعا ويتأخر العقل فيكون تابعاً؛ فلا يسرح العقل في مجال النظر إلَّا بِقَدْرِ ما يُسرّحه النقلُ. ولولا كان ذلك لجاز إبطالُ الشريعة بالعقل وهذا مُحالٌ باطل. وعليه فليس القياس من تصرُّفات العقول مَحضاً دائماً تصرَّفت فيه من تحت نظر الأدلَّة وعلى حسب ما أعطتْه من إطلاقٍ أو تقييد.

المقدِّمة الحاديةَ عشرة: المطلوب من المكلَّف تعلُّمه هو ما دلَّت عليه الأدلَّةُ الشرعية.

المقدِّمة الثانية عشرة: مِن أنفع طرق العلم الموصلة إلى غاية التحقُّق به أخْذُه عن أهلِه المتحقِّقين به على الكمال والتَّمام.

المقدِّمة الثالثة عشرة: كلُّ معنىً لا يستقيم مع (الأصول الشرعية أو القواعد العقلية) لا يُعتمَد عليه.

عِلم ليس يقينيّاً:

هو ما داخلَه الشَّكُّ، والشَّكُّ أو الظَّنُّ هو بمثابةِ أداةٍ أو طريقة بحث. وهذا ما يُشكِّلُ منهجاً مُتطوّراً باستمرار؛ لأنّ المنهج لا بدَّ له من استيعاب مشاكل التطبيق العمليّ:

ففي المنهج العقلي تُشكِّلُ الحواسُ بقُدراتِ العقلviii: والمسائل التي لا تخضعُ للحسّ؛ وإنما تدخلُ في غيب (الماضي السحيق أو المستقبل البعيد أو الموجودات الخفيَّة) عن حسّ الإنسان؛ كـ (الروح والعقل والملائكة)؛ فإنّ منهج الوصول إلى اليقين العلميّ بشأنها هو أحدُ شيئَين:

أوّلًا: الاعتمادُ على الخبرِ الصادق: هو الذي يَرقى إلى درجة التواتر والذي يكون منضبطاً بقيوده وشروطه العلمية المعروفة؛ كيقينِنا بقيام الثورة الفرنسية، ويقيننا بوقعة القادسية، وبوجود معالم تاريخية قائمةٍ في مناطقَ نائية ما لم يُتَحْ لنا أن نراها كـ (تاج محلّ) في الهند، والأهراماتِ في القاهرة.

ثانياً: الاعتماد على البرهانِ العقلي: المتمثِّل في قانون التلازُم؛ وذلك بأن نفترض أحدَ الاحتمالات بشأن هذه المسألة الغيبية، ثم نتبين الآثارَ والمستلزماتِ (العقلية والطبيعية) التي لا بُدَّ أن تكون مقرونة بهذا الاحتمال، فهل رأينا هذه الآثارَ موجودة بعد البحث والتفتيش؟ فالفرْضيَّةُ صحيحةٌ، والاحتمال يصبح حقيقةً علمية، وإن لم نَعثُرْ على هذه الآثار فالفرْضية باطلةٌ، والاحتمال غيرُ واردٍ، وعندئذ نجنحُ إلى الفرْضية الثانية ونُفتِّش عن المستلزماتِ والآثار التي لا بُدَّ أن تتفرَّع عنها، وهكذا فإنَّ دراسة مجموع الفرْضيات عن طريق ما يُسمَّى بقانون الحصر والإسقاط تُوصِلُ إلى اكتشاف الحقيقة مِن بين تلك الفرْضيات، ومن ثَمَّ تُوصِلُ إلى اليقين العلميّ بشأنها.

أمّا المنهجُ (الحِسيّ أو التجريبيّ) فالعقلُ يُشكِّك بقُدرات الحواسix؛ فالمنهج هو الاعتماد على التجربة الحسية فعلا؛ لذا يُحيلُ القرآنُ الإنسانَ في معرفة قضايا الطبيعة وكل ما هو من جنس المادة إلى هذا المنهج ذاتِه دون أن يُلقِّنَه أيَّ علمٍ غيبيّ أو إخبار بشأنها، فهو يقولُ له - مَثلاً - عن الإنسان وتكوينه وأجهزته: وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ الذاريات، ويقولُ له عن الطبيعة وأشيائها المبثوثة مِن حوله: قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (يونس: ١٠١)، دون أن يُحرِجَه فيلومَه بأيّ اعتقادٍ في شيءٍ من شؤونهما قفزاً فوق المنهج العلمي إلى ذلك، وهو (التجربة الاستقرائية والمشاهدة)".

وصَفوة القول: إنّ قيمة العلم تكمُن فيما يَبثُّه من اليقين في العقل؛ لذا فإنّ الدلائل التي تُورِثُ الظَّنَّ أبعدُ ما تكون عن

تسميتها عِلماً. فإذا استقر اليقين في العقل باتباع المنهج المنطقي العقلي، فقد تحقَّقت له القيمةُ الذاتية للعلم، وتكاملت فيه كلُّ خصائصه ومزاياهx.

غَلبةُ الظَّنّ:

ليس كلَّ الظَّنّ إثمٌ؛ لِقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ (الحجرات: ١٢)، كما أنّ اليقين قد لا يصل إليه جميعُ المؤمنين؛ لذلك يتدرَّج الظنُّ حتَّى بلوغه درجةً تُقارِبُ اليقين، فيسمَّى عِندَئذٍ بغَالب الظَّنّ؛ لأنه لا يصل لليقين تماماً. فإن قُلنا: أنّ اليقين يمثِّل ١٠٠٪ فإنَّ غلبةَ الظَّنّ دون ذلك تماماً؛ أيّ: (أقلّ تماماً من ١٠٠٪)؛ لذلك لا يغني الظن بدرجاتِه عن الحقيقة، قال تعالى: وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ النجم، فنقصَ العلمُ حولَه إلى ظَنٍّ، فلم يَعُدْ (حقيقةً كاملة أو حقيقةً علمية راسخة)؛ لذلك هو دون اليقين تماماً.

وعليه فمَن أسلم نفسَه لله تعالى وهو في دائرة غلَبة الظنّ، هو مقبولٌ عند الله تعالى؛ لقوله: الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ البقرة، فالظَّنُّ هُنا غالبٌ بأنهم سيُلاقوا ربَّهم.

وكذلك قوله تعالى: فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ البقرة، والظَّنُّ هُنا فيه غَلَبةٌ؛ وإلّا فما الداعي لعودتهما لحياةٍ يُشكُّ بأنها لن تستمرَ بنجاحٍ؟

ويُفيدُ الوصفُ التالي مدى اقتراب الظنّ لدرجةٍ غالبة تُقارِبُ اليقينَ؛ فالشواهد (العَينيّةُ والحِسّيَّةُ) أدركت الهلاكَ تماما؛ فوصفَ الُله حالَهم بِقولِه: هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ يونس.

ويُفيد الوصفُ التالي أنّ غلَبة ظنّ بعض الناس عندما يتمكّنون بأخْذ أسباب القوَّة والقُدرة؛ كونها قُدرة غالبة، قال الله تعالى: إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ يونس.

وقد علَّمنا اللهُ استخدام أدواتٍ تُؤكِّد الظنونَ فتجعلها غالبةً لدرجةٍ عالية؛ كـ (التسجيل والكتابة، والشهادة، والرهن)، وطوَّر الفقهاءُ عِلماً لم يعرفْه غيرُ المسلمين؛ ألا وهو (عِلْمُ الرِّجال)؛ فكان وسيلةَ إثباتٍ لمصدَر النصوص ولدلالاتها، أهي (صحيحةٌ يقيناً) أمْ أنها (مظنونةٌ) أم غير ذلك؟

ثبوتُ النصوصِ ودلالاتُها:

القطعُ هو العلم، وهو ما لم يتطرّق إليه شكٌّ، ولا احتمال في خطئه أو خلافه وهو (العلم اليقينيّ)، ومِثاله الآيات القرآنية فكلُّها قطعيةُ الثبوتِ لا احتمالَ لخطأٍ في رواياتها؛ لتواترها؛ فقَد نقلَها جماعةٌ يستحيل تواطؤهم على الكذب أو الخطأ. أمّا دلالاتُها فقد تكون (ظنِّيَّة)؛ لأنّ بعضَها يحتمل أكثرَ من معنى. والظن هو احتمالٌ راجح للثِّقة فيه، فإذا ما زادت درجةُ الثقةِ يكون (ظنَّاً راجحاً). أمَّا السُّنَّة الشريفة ففيها (المتواتر والآحاد)، فالواحد قد ينسَى أو يتوهَّم فيقع احتمالُ خطأٍ ولو بنسبةٍ ضئيلة فيكون ظنَّاً، فإن احتمل معنى الحديث أكثرَ من حالةٍ؛ فيكون ظنّيَّاً.

وبناءً عليه تُقسَم أنواعُ النصوصِ والأحكام إلى أربعةِ أنواعٍ؛ الأوَّل منها (قطعيٌّ)، والثلاثة الباقية (ظنِّيَّةٌ)، وهي:

قطعي الثبوت قطعي الدِلالة، وهذا قطعي.

ظنّي الثبوت قطعي الدِلالة، وهذا ظنّي.

قطعي الثبوت ظني الدِلالة، وهذا ظنّي.

ظنّي الثبوت ظني الدِلالة، وهذا ظنّي.

فـ (قطعيُّ الثبوت قطعيّ الدلالة هو اليقين)، وما أُجمع عليه من الأنواع الثلاثة الأخيرة فيكون بمثابة القطعي؛لأنّ الإجماع يُحوِّل النَّصَّ من الظنّ إلى القطع أو غالب الظنّ الذي يُقارِبُ اليقينَ، وفائدة هذا التقسيم أنَّ مَن أنكر القطعيَّ فقد كفرَ بما أنزل الُله، بينما مَن أنكر الظنّيَّ وكان من المتأوِّلين والمجتهِدين فقد أخطأ؛ وإلّا فهو فاسقٌ عاصٍ. وفيما يلي بيانٌ لتلك الدرجات:

قطعيُّ الثبوتِ قطعيُّ الدلالة:

هو ما يُفهَم من النصِّ ويستدلُّ مِنه؛ كقولِه تعالى: (أقيموا الصلاةَ) يُفهم منه وجوبُ إقامة الصلاة، ولا مجال لتفسيره بأيِّ معنىً آخرَ؛ فالدلالة التي فُهِمَتْ من هذا النصِّ قطعيةٌ لا مجال للخِلاف فيها.

أمَّا الثبوتُ فيُقْصَدُ منه طريقُ وصولِ النص إلينا؛ فالقرآن كلُّه قطعيُّ الثبوت؛ لأنه جاء عن طريق التواتر فلا مجال للطعن في صِحَّة ثبوت آياته؛ لذلك فالنَّصُّ (أقيموا الصلاة) قطعيُّ الثبوتِ قطعيُّ الدلالة.

ظنّيُّ الثبوتِ قطعيُّ الدلالة:

هو نصُّ حديثٍ وردَ عن النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلّم؛ حيث دلالته (قطعيةٌ) ليس لها سِوى معنىً واحدٍ لا مجال لتفسيره بغَيره؛كقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: (مَنْ أدركَ ركعةً مع الجماعةِ فقَد أدركَ الجماعةَ) فلا يُخالِط فَهْمَ معناه أيُّ وَهَمٍ.

أمَّا ثبوتُ النَّصِّ عن النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم الذي لم يثبتْ بدليلٍ متواتر فلا نقطعُ بأنَّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم قد نطقَ بكلِّ حَرفٍ منه؛ كأن يكون حديث آحاد فلا يصلُ في درجة ثبوته عن النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم مرتبة المتواتر، فيُقال عنه: (حديثٌ ظنّيُّ الثبوتِ قطعيُّ الدلالة).

قطعيُّ الثبوتِ ظنّيُّ الدلالة:

إنّ قوله تعالى: (وامسَحُوا بِرُؤوسِكُمْ) لا يُشَكُّ في ثبوت نصِّه؛ لتواتر نقْله كما أوضحنا، بينما أُختلف في تفسيره وفهْمه؛ فهل حرفُ (الباء) في قوله تعالى: (بِرُؤوسِكُم) يدلُّ على التبعيض؛ أيّ: ببعض رُؤوسِكُم، أم الإلصاق، أي بجميع رُؤوسِكُم؟ لذلك هذا نصٌّ قطعيُّ الثبوت؛ لأنه ثابتٌ قطعاً، ظنّيُّ الدلالة قد وقع الخلافُ في تفسير معناه.

ظنّيُّ الثبوتِ ظنّيُّ الدلالة:

هو نصُّ حديثِ رسول الله صلى الله عليه وسلم مِثاله قوله: (البيّعانِ بالخيارِ ما لم يتفرَّقا)، فهذا حديثُ آحادٍ؛ لذلك هو ظنّيُّ الثبوت، وبما أنه قد أُختلف في تفسيرِه؛ فهو ظنّيِّ الدلالة أيضاً.

الظَّنُّ بمعنى الشَّكِّ:

إذا بلغ الظنُّ درجاتِ ثقةٍ دُنيا فيكون أقربَ للشَّكِّ؛ كقوله تعالى:

وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ الأنعام.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا

قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ الأنعام.

قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ الأعراف.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ القصص.

وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ القصص.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ ص.

ففي هذه الأمثلة بلغ الظنُّ مرتبةَ الشَّكِ، فكان اتِّباعُ الظنِّ تقديراً؛ أيّ: خَرْصاً دون أدلَّةٍ موضوعية، فأورث أصحابَه الرِّيبَة.

الظَّنُّ بمعنى الوهمِ؛ أو ظَنَّ السَّوءِ:

إذا بلغ الظنُّ أدنى درجاتِ الشك صار وهماً مقارباً للعدم، وهذا ما أسماه اللهُ تعالى بظَنِّ السَّوءِ؛ حيث يبتعد الظانُّونِ عن حدِّ الشَّكَّ حتَّى يتوهَّمون، كما هي حال المنافقِين والمشركِين يوم الحديبية، فيُعذِّبهم الُله تعالى بسُوءِ ظنِّهم بالله بأنّه لن ينصرَ نبيَّه محمّداً صلّى الله عليه وسلّم، قال تعالى: وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ (الفتح: ٦).

كما بلغ سوءُ ظنِّهم أنّ القتلَ مصيرُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلَّم هو ومَن معه مِن المؤمنين فيَسْتأصِلُونَهُم وينتهي أمرُهم وأمرُ دِينِهم، قال تعالى واصفاً ذلك: بلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ الفتح.

ثالثاً: الشكُّ ودَرجاتُه:

ذكرَ معجمُ المعاني الجامع أنّ (الشَّكَّ هو حالةٌ نفسيَّة يتردَّد معها الذهنُ بين الإثبات والنفي فيتوقَّف عن الحُكْم)، فيُقال: شَكٌّ، أيّ: الْتِبَاسٌ وَارْتِيَابٌ، وهذا نَقِيضُ اليَقِين. قال تعالى: فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ يونس، ومعنى لا تكونَّن مِن الممتَرينَ: أيّ: لا تكونَّنَ مِن المشكِّكِيَن.

وقد يقع الشَّكُّ في تطبيق الأحكام، جاء في (التفسير الميسَّر) عن عِدَّة النِّساء في قوله تعالى: وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ الطلاق، فالمطلَّقات اللاتي انقطع عنهنَّ دمُ الحيض؛ لِكَبَر سِنِّهنَّ، قد يرتبنَ؛ أيّ: يشكُكن؛ فما الُحكْم فيهنَّ؟ إنَّ عِدَّتَهُنَّ ثلاثة أشهُر، وكذا الصغيرات اللاتي لم يَحضْن، أمّا ذواتُ الحَمْل من النساء فَعِدَّتُهُنَّ أنْ يضَعْنَ حَمْلَهنَّ.

تُقسَمُ درجاتُ الشَّكِ إلى:

الرَّيب، أو رَيب المنُون، أو المِرْية.

الشَّكِّ المريب.

الرَّيب:

جاء في لسان العربِ أنّ (الرَّيْبَ والرِّيبةَ هي الشَّكُّ، والظِّنَّةُ، والتُّهَمَةُ)، وقد طلبَ اللهُ تعالى ممَّن يُشكِّكونَ في كتاب الله أن يأتوا بِسُورةٍ من مِثله، وليدعموا ذلك بمَن يشهدُ على فِعلهم إنْ كانوا صادقين، قال تعالى: وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ البقرة. واستخدم القرآنُ الكريم كلمةَ (ريب) في مواطنَ عديدةٍ للدلالة على (الشكِّ والرِّيبة)، أو لِـ (نَفيها عن الغيبيات) التي ذكرت سابقاً؛ كقولِه تعالى لمن يُنكِرُ يوم القيامة: رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ آل عمران، وقوله: فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ آل عمران. وقولِه لمن يُنكِرُ الموتَ ونهايةَ الأجَل: أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إَلاَّ كُفُوراً ﴿٩٩﴾ الإسراء.

والرَّيبُ يكون في (القلب)؛ وهو ما يجعل سلوكَ المرتابِ سُلوكاً مُتردِّداً، يقول الله تعالى: إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ التوبة، وقد يكبرُ حَجْمُ الرَّيب ليصبح كأنه بُنيانٌ؛ ممّا يدلُّ على أنه يتراكمُ في قلبِ المرتاب، يقول المولى عزَّ وجلّ: لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ التوبة.

لقد كان رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم أمّيَّاً لا يقرأُ ولا يكتب، وهذا مِن تدبير الله تعالى، فكان ذلك حُجَّةً على مُنكِري كتابِ الله والمشكّكين فيه، يقول تعالى: وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ العنكبوت.

رَيبُ المَنُون:

ذكرَ القرآنُ كلمةَ المنونِ بعد الرَّيبِ؛ لتدلَّ على حَوادِثِ الدَّهْرِ وَمَصائِبِهِ - كما في معجم المعاني الجامع -، قال تعالى: أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ الطور، وحوادثُ الدهر ومصائبُه هي مخاطر تصيب الإنسانَ خلال حياته.

المِرية:

المِريةُ حسب الصَّحاح في اللغة هي (الشَّكُّ)؛ كقوله تعالى: أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾ فُصِّلت.

الشك المريب:

قد يكون الشَّكُّ مُريباً؛ ممَّا يُصيب النفْسَ بقلقٍ يُقلِقُها ويهمّها فيُزعِجها، وقد أصاب الشَّكُّ المريب الأقوام الكافرة؛ فطريقة تفكيرهم ونهجُهم واحدة، يقول الله تعالى:

عن قوم صالحٍ عليه السلام: قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ هود،

وعن قوم موسى عليه السلام: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ هود،

وعن قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين مِن بَعدِهم: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا

إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ إبراهيم.
ويُقارِب الشَّكُّ المريب درجةَ الوهَم؛ لاقترابِه من العَدَم.

آياتٌ جامعة لأكثرَ من عبارةٍ:

إنّ موعد يوم الحساب موعدٌ غيبيّ لا يَعلَمُه غيرُ الله تعالى؛ لذلك هو ركنٌ من أركان الإيمان عند المسلمين، فالكافرون انتهجوا التكبُّر على أوامر الله في حياتهم الدنيا - رغم آياتِ الله التي كانت تأتيهم -، ثُمَّ هُم يُنكِرونَ موعدَ الحساب، ويجعلونه مظنوناً مُقارِباً للشَّكِّ؛ لأنَّهم غيرُ مستيقنيَن بشأنه فيُشكِّكون في يوم الحساب، بينما وعدُ الله حقٌّ يقينيّ ليس فيه شكٌّ ولا ريب. وبذلك قابلَ اليقينُ في وعدِ الله عدمُ الاستيقانِ عند الكافرين، وقابلَ نفي الريب في وعدِ الله ظنُّ الكافرين بأدنى درجاتِه؛ حيث قارب الشَّكَّ في وعدِ الله. قال الله تعالى: وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ الجاثية.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى مصيرَ أولئك الجاحِدين بِقولِه: وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ الجاثية. وعِلَّة ذلك أنَّهم غرَّتهم الحياة الدُّنيا فخيّبهم الأملُ الذي تعلَّقوا به وسقطوا بسبب ذلك في العذاب، يقول الله تعالى: ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ الجاثية.

والآية الأُخرى الجامعة لأكثرَ من عبارةٍ من عبارات الاحتمال، هي ذكرُ الله تعالى مصيرِ عيسى عليه السلام؛فاليهودُ والنصارى يدّعونَ قتْله وصلْبه، وهذا ما نفاه الُله تعالى فـ (ما قتلُوه وما صلُبوه)؛ إنما أشكل عليهم الأمرُ وتشابَه عليهم، فالمختلفون في ذلك إنما هُمْ في شكٍّ مردُّه الوهَمُ وعدمُ العِلم، فكان الذي اتَّبعُوه ظناً مورثا للشك أما اليقين في الخبر فأنهم لم يقتلوه بشكل مؤكد، فقد رفعه الله تعالى إليه، يقول الله تعالى: وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ﴿١٥٧﴾ النساء.

إنَّ نقصَ العلم قد جعل أولئك المدَّعين يقعون بالوهَم، والعِلمُ الذي ينبؤنا به الله تعالى في كتابِهِ على لسان عيسى عليه السلام بأنه سيُبعثُ حيَّاً، قال الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مريم، وقد أيّد ذلك أحاديثُ نبويةٌ متواترة عديدة.

أدواتُ إدارة المخاطر وتِقنياتها وسُبُلُ التحوُّط لها

علَّمنا اللهُ تعالى آلياتِ إدارة المخاطر التي قد تحيط بالإنسان بأسلوبٍ (علميّ وتِقنيّ)، ونهانا عن الخُرافات وما شابَهها، فمِمّا دَلَّتْ عليه الآيات الكريمة إضافة لتوافُر البيانات والمعلومات الصحيحة، توفير أدوات تساعد على ذلك: (الكتابة، والشهادة، والرهن، والموازنات، وبعض الأعمال والسلوكيات، وأدوات إحصائية)، وهذا ما سنبينه بالآتي.

(١) الكتابةُ والتسجيل:

تُفيد الكتابة بالحدِّ من (مخاطر النسيان وضياع الحقوق وتثبيتاً لها بالقسط، وللقيام بالشهادة بشكل صحيح). وقد بيَّن اللهُ تعالى ذلك في أطول آيةٍ من آي القرآن الكريم؛ والتي عُرفت بآية (المداينة أو آية الكتابة) قواعدُ الكتابة العادلة

الصحيحة، فـ (الكتابةُ مندوبةٌ)، والكاتبُ كاتبُ عدلٍ يكتب كما علَّمه الُله، لا يكتب بهوى يخصُّه فيميلَ إليه، ولا يبخس من الحقّ شيئاً، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ (البقرة: ٢٨٢).

وقد شرَّفَ اللهُ أدواتِ الكتابة فأقسمَ بها قائلاً: نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ القلم، وجعلَ ملائكته يكتبون عملَ الصالحين، فقال عزَّ مِن قائلٍ: فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ الأنبياء، وشبَّه تعالى نهايةَ الحياة الدنيا وانتهاءَ ما فيها ومن ذلك (السماء العظيمة) كطي السِّجِل للكُتب، فقال المولى: يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ (الأنبياء: ١٠٤).

(٢) الشهادةُ:

هي أداةٌ تُساعِدُ في الحدِّ من (مخاطر النسيان وضياع الحقوق) فتُثبتها، وتكون بشاهدين عند (كتابة الديون، والبيوع وإثبات الحقوق، وإقامة الحدود). قال تعالى: وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا (البقرة: ٢٨٢).

وتكون بأربعةِ رجالٍ إذا ما كانت في الحدود؛ كـ (حَدِّ الزنى)، يقول الله تعالى: وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ النور.

(٣) الرَّهنُ:

يُساعد الرهنُ في تثبيتِ الحقوق من الضياع، يقول تعالى: وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ البقرة.

(٤) وضعُ الموازناتِ المستقبلية:

يُعلِّمنا اللهُ آلياتِ ضبْط حِدَّة المخاطر؛ خاصَّة إذا كانت مصالح الناس في خطر، ولأجلِ ذلك يُوضَع أكثر من احتمالٍ (كسيناريوهات)؛ لمجابهة التغيرات المتوقَّعة؛ لضبطها وتخفيف حِدَّة آثارها السلبية.

فسَّر يوسفُ عليه السلام منامَ الملك الذي تردَّد عليه مِراراً، فقد فهم - ممّا علَّمه اللهُ من تأويل الأحاديث قال تعالى: وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ (يوسف: ٦) - أنّ جَدْباً سيُصيب القومَ، فرسم للملِك خطَّة طويلة الأجلِ مُدَّتُها خمسة عشر عاماً، وزَّعها إلى خطَّتَين مدَّة كلٍّ منها سبعةُ أعوام. توقَّع أن تكون الفترة الأولى فترةَ رخاءٍ وخصب، ثم يتلوها فترةٌ شديدةُ القحطِ مُجدِبة قد لا يَنبُت فيها زرعٌ. فخطَّط لهم ليزرعوا السنابلَ في الفترة الأولى، فيحصدونَها ولا يدرسونَها للاحتفاظ بها، فبقاؤها في السنابل تزيدُ مقاومتَها وتزيد تحمّلها لشروط التخزين الطويل، فلا يأكُلون من ذلك إلّا القليل ممّا يكفي طعامهم. ثمَّ يستخدمون مخزون الفترة الأولى طعاماً في الفترة الثانية. بعد ذلك تنفرج الأمور بنزول المطر فيُغاثُ الناس، وتمرُّ الأزمة، وتعودُ حياتهم الاقتصادية حياةً طبيعية؛ فيَزرعونَ فيها ويعصرون ممّا تُخرج الأرضُ. قال الله تعالى: قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ يوسف.

(٥) سلوكياتٌ وأفعالٌ:

هناك أفعالٌ تساعد في الحدِّ من المخاطر، كفعلِ الخضِر - الذي آتاه اللهُ العِلم - مع موسى عليه السلام في قَصص سورة

الكهف؛ كتعييب السفينة بِخَرْقِها لينجو أصحابُها المساكين من ظُلم المِلِك الغاصب، وبناء الجدار لحماية كنْز الغلامَين اليتيمَين؛ وذلك تحوُّطاً من خطر متوقَّع.

(٦) أدواتٌ إحصائيَّة:

ذكرَ القرآنُ العديد من الأدوات، منها: (الأمل، والإحصاء، والخرص، والتقدير، والتوزان، والوسط، والميل والانحراف، وأنظمة العد). وسوف نتناول بعضها بالبيان كما سيأتي.

الأملُ

الأمل كلمةٌ إيجابية بكلِّ معانيها. يكون الأمل عادةً من المرء لنفْسه وذاته، وبما أنها تعني الرجاءَ فلا يُعقَل أن يترجَّى المرءُ غيرَ الخير لنفْسه، فهل يكون الأمل خدّاعاً؟

يكون الأملُ بمعناه السلبيّ عندما يترجَّى المرءُ غيرَ الخير ظانّاً أنه يفعل الصوابَ بنفسه، عندئذ يصير الأمل خدّاعاً؛ فالأمل يكون رجاءً لأمرٍ مستقبليّ، فيعمل المرء الآن ما يجعلُه يحصد نتيجةَ أمله مستقبلاً. فإذا ماكان الزرع سيِّئاً كان الحصادُ من جنسه، والفارقُ أنّ الزمن مرَّوانقضى، أو كما يُقال بالعامِّيَّة: (الذي ضربَ ضرب).

أمَّا أبشعُ أشكالِ الأملِ الخَدّاع فهو ما وصفَه الله تعالى عن الكفَّار الظانّين أنَّهم على حقٍّ فضَيَّعُوا فُرصَة العُمُرِ التي لا تُعطى للمرء إلّا مرة لِيَحياها. قال تعالى في سُورة الحِجر: رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾، فهم يرجون أمراً ولا يَفعلوه؛ فيَزرعون مالا يُوصلُهم إلى ما أمَّلوه؛ فيقضون أيَّامهم بالمتع الدنيوية الزائلة؛ فيلتهون عمَّا أمّلوا به، لكنَّهم سيعلمون مستقبلا أنَّ حصاد أعمالِهم من جنْسِ زرْعهم نفسه. وبذلك يكون أملُهم قد خدعَهم؛ لأنَّهم لم يفعلوا الصوابَ؛ بل خُيّل إليهم أنَّهم على صوابٍ. ثمَّ يأتي قولُ الله تعالى في سُورة الكهف مُزلزِلًا: الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾، وهذه أخوف آية؛ - فكلَّما تلوت هذه الآية ظننت أنها قِيلتْ لي -.

يُعرَّف الأملُ الرياضي في الإحصاء بأنه ناجمٌ عن جمع نواتج ضرْب كلِ مُتغيِّرٍ عشوائي باحتمال حدوثه لينتج الوسط الحسابي لهذه الاحتمالات. ويستخدم الأملُ الرياضي مع الاحتمالاتِ لإمكان وقوع الحدث؛ حيث يتأرجح بين العَدم واليقين مروراً بما بينهما من درجات ثقةٍ. كما يُستخدم الأملُ الرياضي في حساب التباين والانحراف المعياري؛ لذلك هو مقياسٌ من مقاييس النزعة المركزية يُستفاد منه في حساب تشتُّتِ الظواهر عن وسطها الحسابيّ.

وبناءً على ذلك فإنّ الأمل الرياضي يُقارِبُ حالة الظن في أدنى درجاتِها؛ والتي تمثِّل ٥٠٪ كوسطٍ بين طرفَي العدم واليقين، وبه وصفَ الُله تعالى فعلَ الكفَّار الذين يقضون حياتَهم الدنيا بالمتَع الحسِّيَّة؛ بأنهم قد ضيَّعوا العُمُرَ؛ أيّ: الزمن، في أشياءَ لاهية بأملٍ خدّاعٍ، ظانِّينَ أنهم على حقٍّ، وسيعلمون يومَ الحساب يقيناً خطأ فِعالِهم.

ويكون الأملُ إيجابياً إذا ما تركَ الإنسانُ ما يُلهيه عن العمل الصالح لِيُوازِنَ بين ما هو زينة الدنيا ومُتَعِها وبين ما ينفعُه لآخرته من الصالحات، يقول الله تعالى: الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴿٤٦﴾ الكهف.

الإحصاءُ

العدُّ مرحلةٌ أوليَّة لجمع البيانات، أمَّا الإحصاءُ فيُحوِّل البياناتِ إلى معلوماتٍ ذات معنىً أفضل، يقول الله تعالى: لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً ﴿٩٤﴾ مريم.

ولما يسأل الله تعالى أهل النار عن فترة مُكوثِهم في الدنيا وقد حسبوه يوماً أو بعضاً منه، يطلبون مِن الله تعالى أن يسأل العادِّينَ؛ لأنَّهم كانوا غافِلِين ساهِين، يقول الله تعالى: قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ المؤمنون.

كما أنّ رُسُلَ الله تعالى مراقبونَ بـ (العَدِّ والإحصاء)؛ حتى يُبلّغوا رسالاتِ الله تعالى لِعباده، وهذا إنّما لإقامةِ الحُجَّة على العباد بأنهم قد علمُوا الخبرَ اليقين من أولئك الرسل وأنّه به سيُحاسَبون إن لم يفعلوا ما أُمِرُوا به، يقول الُله تعالى: لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴿٢٨﴾ الجن.

وتُعرض يومَ القيامة أعمالُ الناس مُوثَّقةً (كتابةً وصوتاً وصورةً)؛ لذلك يتفاجأ المجرمونَ من شِدَّة ودِقَّة التسجيل؛ فالتسجيلُ يشمل العدَّ والإحصاء، وبذلك تسهلُ معرفةُ النتائج، فسجِلُ حياةِ كلِّ فردٍ سجلٌ كبير جِدَّاً، تتلخَّص نتائجُه بالإحصاء؛ لذلك تكون المفاجأةُ بمعرفة كلّ فردٍ لمصيره بمجرَّد الاطلاع على تلك السجلّات، يقول المولى عزوجلَّ عن هذا المشهد العظيم: وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴿٤٩﴾ الكهف.

ويأمر اللهُ تعالى عبادَه بإحصاء العِدَّةِ عند حصول الطَّلاقِ لأهميته في (حفْظ الأنساب والحقوق)، يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ (الطلاق: ١).

ويقول تعالى عن تثبيتِ أعمال الناس وقد أحصاها في كتابٍ واضح مُبين قد شهد عليه بذاتِه العَليَّة: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ المجادلة. ويشمل هذا السِّجِلُ آثارَ الناسِ من (خَيرٍ وشَرٍّ) وما ترتَّب عليهم فكتب لهم مِثلها إلى يوم القيامة كما أخبر نبيَّ الله محمَّداً صلّى الله عليه وسلَّم، يقول تعالى: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ يس.

الخرْصُ

يُقالُ لِمن يظنُّ بالشيء (خَرَّاصٌ) وَجاء في لسان العرب أنّ أَصل الخَرْصِ التَّظَنِّي فيما لا تَسْتَيْقِنُه، ومنه خَرْصُ النخْلِ والكَرْم إذا حَزَرْت التمر؛ لأَنّ (الحَزْرَ) إنما هو تقديرٌ بظَنّ لا إحاطة، والاسم الخِرْص، بالكسر، ثم قيل للكَذِب خَرْصٌ لِما يدخلُه من الظُّنون الكاذبة. قال تعالى في سورة الذاريات: قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾، أيّ: قُتِلَ أهلُ الظُّنونِ المرتابونَ الذين يُشكِّكونَ بيوم الدِّين فيتساءلون مُنكِرين: (أيَّان يومُ الدِّين؟)؛ أيّ: متى هو يوم المجازاة والحساب؟ وهُم في الكفْر والشكِّ غافلونَ لاهونَ، فأوقعوا أنفسَهُم في عذابِ الله تعالى؛ حيث أخبرَنا عن مصيرهم بِقَولِه تعالى: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ الذاريات.

لذلك فإنّ أغلبَ حالاتِ الخَرْصِ تكون بمعنى (التقدير الذي فيه الشَّكُّ)، ويقول الله تعالى عمَّن لجأ للظن والخرص بأنهم مُضِلُّونَ؛ لأنَّهم ليس لَديهم يقينٌ: وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ الأنعام. ويقول أيضاً: أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ يونس.

وقد أخطأ أولئك الذين عبدَوا غيرَ اللهِ فأساؤوا الخرْصَ ظانّيَن أنَّهم على عِلْمٍ، قال الله تعالى: وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ الزُّخرف.

المقدارُ وأنظمةُ العَدّ:

أنزلَ اللهُ تعالى في كتابه العزيز عباراتِ (القدْر والتقدير) مراراً، ودلَّ على ذلك بـ (أرقامٍ ومقاديرَ) تُعرَف بها ووضعَ لها مِيزاناً تُعرفُ به الأشياء؛ فقال في سورة الرحمن: وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾. فذكر مقاديرَ محدَّدة كـ (الثُلُثِ والثُلُثَين والنِّصف)، فقال: نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (المزمل: ٣)، وقال: إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ (المزمل: ٢٠). وذكر (الزوجَ والزوجَين والشفْع والوتْر).

وقد ذَكر نظامَ العدِّ العُشري بكامل عناصره في القرآن الكريم، كالصِّفر - الذي ذُكِرَ بعِدَّة معانٍ - فـ (الواحدُ فالإثنين فالثلاثة فالأربعة فالخمسة فالستة فالسبعة فالثمانية فالتسعة فالعشرة)، وذكرَ بعض مضاعفاتِها كـ (الإحدى عشر والإثنا عشر والتسعة عشر، والعشرين، والثلاثين، والأربعين، والخمسين، والستين، والسبعين، والثمانين، والتسعين، والمائة، والمائتين، والثلاث مائة، والألف وبعض مضاعفاتِها كالثلاثة آلاف)، ومِن ذلك قوله: فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ (البقرة: ٢٥٩).

وذكر (اليوم والأيّام والسَّنة والسِّنين)، قال تعالى: ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ آل عمران، وقال: فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ الكهف. وخلقَ ميزاناً لها لِتُعرَفَ بها الأعمارُ وغيرها، فقال: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ يونس.

إنّ هذه الدِّقَّةَ لا يعلمُها إلّا (خالقٌ بارئٌ مُصوِّرٌ خبيرٌ عليمٌ)، أمّا نحن البشرَ فمُجرَّد مستخدَمين لهذه الأنظمة، العالِمون مِنَّا أحسنَوا استخدامَها، وجهلَها الجاهلونَ، وأنكرَها الجاحِدونَ، قال المولى عزَّ وجلَّ: وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ العنكبوت، فتبارك الله أحسن الخالقين، فالجاحدون ظنوا أن آلهة غير الله فعلت هذا النظام، فقال لهم الله تعالى: أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ الصافات؛ أيّ: أتستعينون بالصَّنَمَ (بَعل) وتتركونَ أحسنَ الخالِقينَ! فأيُّ حُكمٍ فاسد هذا؟ وقال لهُم: مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ الصافَّات.

وذكر أيضاً الضِّعف والضِّعفين، فقال: فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ (البقرة: ٢٦٥)، وجعل مجالَ المضاعَفة مفتوحاً لا حدودَ له بقَوله: مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ البقرة. ونهى عن الرِّبا ومُضاعفاتِها ممَّا يُسمُّونها حاليَّاً بالفائدة المركَّبة فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ آل عمران، وذلك بعدَ أن نهى في سُورةٍ سابقة عن ترك أيِّ شيءٍ من الرِّبا مهما تناهى صِغرهُ بطريقةٍ مُعبِّرة فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ البقرة، وذروا؛ أيّ: اتركواُ أيَّ جُزءٍ مِن الرِّبا ولا تَقربُوه.

ثم ذكرَ أنظمة عدٍّ أُخرى لا يستخدمُها البشرُ كنظام العدِّ الذي أساسُه الألفُ، فيعادل اليومُ منه ألفَ سَنةٍ من النظام العِشريّ، قال تعالى: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ الحج. ونظام العدِّ الذي أساسُه الخمسين ألف، فيُعادل اليومُ منه خمسينَ ألفِ سَنةٍ من النظام العِشريّ، قال تعالى: تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ المعارج.

التوازنُ

خلقَ اللهُ الأرضَ وقدَّر ما فيها بشكلٍ موزون فكانت الأرضُ متوازنةُ بما فيها لا خَلَلٍ فيها إلاّ إذا أفسدَها سُكَّانها وقاطِنوها،

قال الله تعالى: وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ الحِجر.

الوسط

أشار اللهُ تعالى للوسطِ في عِدَّةِ مواضعَ؛ فقال أنّ هذه الأمَّة أُمَّة وسطاً بين الأُمم، فقالَ : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا (البقرة: ١٤٣)، وطلبَ المحافظةَ على الصلاة التي تتوسَّط سائرَ الصلواتِ، فقال: حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ (البقرة: ٢٣٨)، وطلبَ إطعامَ المساكين من أوسط الطعام لا أفضلَه ولا أسوأه، فقال: فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ (المائدة: ٨٩). وقال - أيضاً -: قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ القلم. والوسطُ يكون بين مجموعةٍ، قال اللهُ: فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ العاديات.

وعبَّر عن التوسَّط بجعلِه مجالاً بين حدَّين مُتطرِّفين، فيكون أعلاهما، ويفيد ذلك بتحرُّك هذا الوسط ضمنَ مجالٍ لتحقيق غاية القيام بالشيء ليحسُن قوامُه، قال تعالى عن حدّ الإنفاق: وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ الفرقان، وهذه الآية تمثِّل الاقتصادَ الصحيح أفضلَ تمثيلٍ؛ فبَعد (النكباتِ والأزمات) تميل الناسُ للانكماش، وكذلك يفعل التقتيرُ والبخل، ولا تعود دورةُ الاقتصاد للعمل إلّا بـ (الإنفاق والبذل)، كما أنّ الإسراف يُخرِّب الاقتصادَ، ويُدخِلُه في تضخُّمٍ نتائجُه مريرةٌ على الناس، وعليه فلا يقوم الاقتصادُ إلّا بالتوسُّط ضمن مجالٍ يقع بين حدَّي سلوكَين يسلكُهما بعضُ الناس هما: (التقتيرُ والإسراف)؛ فإنْ شاع هذا السلوكُ وعمَّ الجميعَ دخلَ الاقتصاد في عُنُقِ زُجاجةٍ يصعُب خروجُه منها.

ويُعتبَر الوسطُ أحدَ مقاييسِ النزعة المركزية.

الميلُ والانحراف

الميل في الحُكم يكون بالابتعاد عن الحق وهو (الجَور والظلم)، و(الميل والانحراف هو التشتُّت والابتعاد عن المركز)، يقول اللهُ تعالى: وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ النساء.

ووصفَ مَن يتَّبع شهواتِه ولا يُحكِّم عقلَه في اتِّباعه لِهواه بأنّه قد انحرفَ انحرافاً كبيرا، قال اللهُ تعالى: وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ النساء

بناءً على ما سبقَ، يُمكِن تقسيم الاحتمالات إلى مجموعة أقسامٍ لكلٍّ منها درجاتُها:

درجاتُ الاحتمالات:

(١) اليقين = ١٠٠٪ وهو الجزم بحصول الشيء، وسُمِّي بـ (قطعي الثبوت قطعي الدلالة). ودرجاتُه:

عِلمُ اليقين: التحقُّق من معلومةٍ سُمع بها كخَبر.

عَينُ اليقين: التحقُّق من المعلومة برؤيتِها بعدما سُمع بها.

حَقُّ اليقين: التحقُّق من المعلومة المخبَر عنها بمعايشَتِها بالمباشَرة والمواقعة.

(٢) الظنُّ، ودرجاتُه:

غالب الظَّنّ < ١٠٠٪: تكون درجةُ الظنّ بـ(وقوع الشيء أو عدم وقوعه) بدرجةٍ تُقارِبُ اليقينَ، فإذا كان أحد المرجَّحين يطمئنُ إليه القلبُ، فهو ظنٌّ غالب يُقارِبُ منزلةَ اليقين. وهو قسمان:

(ظنّيٌّ الثبوت قطعيّ الدلالة).

(قطعيُّ الثبوت ظنّيّ الدلالة).

الظَّنُّ >٥٠٪، حيث يترجَّح فيه أحدُ الاحتمالَين، دون اطمئنانِ القلب للجهة الراجحة فيكون ظنَّاً، ومجاله أكبرُ تماماً من ٥٠ ٪؛ وهو ما يُسمَّى بـ (ظنّيِّ الثبوتِ ظنّيِّ الدلالة).

(٣) الشَّكُّ، ودَرجاتُه:

الشَّكُّ أو الرَّيب أو المِرية = ٥٠٪ وفيه يستوي احتمالُ الـ (نعم، لا)، ويتردَّد الفعلُ بين الوقوع وعدمِه بلا مُرجِّح لأحد الاحتمالَين؛ أي: باحتمال ٥٠٪ لكلٍّ منهُما.

الشَّكُّ المُريب < ٥٠٪

الوَهَمُ أو المرجوح: وهو يُقاربُ العَدم؛ لأنه موهومٌ؛ بسبب الجهل، وعَدم العِلم؛ لقول الله تعالى: (ما لَهُمْ بِهِ مِن عِلْمٍ) وفيه تقعُ (الجهالة والغَرر) بدرجاتٍ مختلفة. ومنه ظنُّ السَّوء أيضا.

(٤) العَدم = ٠، وهو الجزمُ بِعدَمِ حصول الشيء.

يُستفاد ممّا سبقَ: أنَّ عِلْمَ الاحصاء وطُرُقَ البحث فيه قد دلَّت عليه آياتُ القرآن الكريم فكان ممَّا علَّمنا اللهُ، وهذا ما يشير لضرورة العملِ بالعلم وأصوله العلمية، وليس تركَ الأمور على ما هيَّتها فيكون الإنسانُ (متأثّراً لا مؤثّراً)؛ فـ (العقلُ أداة الاستنتاج)؛ وبذلك يكون المنهجُ منهجاً استنباطياً، والعقلُ مزوَّدٌ بأدواتٍ تجعلُه يُحسُّ بمحيطه فيكون ذا منهجٍ تجريبيّ أيضاً، فيتعرَّف إلى خالِقه وإلى آلائه ونَعمائه؛ فيقرّ له بـ (الربوبية والأُلوهية) ويؤمن به غيباً؛ وبكأنَّه يراه فيعمل الصالحاتِ التي أمره خالقه بها.

ثم يكون ذلك منهجَ حياةٍ له في الوصول إلى الحقائق العلمية؛ فـ (اليقينُ عنده هو الراجح) دَوماً، فإنْ تعارَض عنده يقيْن وظنٌّ رجَّح اليقيَن عنده، فإنْ غاب عنه اليقيُن أخذ بغالبِ الظنّ؛ لأنّه الأرجحُ، وقد بُنيت الأحكام الشرعية على غالبِ الظنّ.

وعليه، ففي عِلْم الرِّجال الذي تفرَّد به المسلمون الأوائل عن غَيرهم من الأمم، فإنَّ نُصوصَ القرآن الكريم نُقِلَت بالتواتر فثَبَتَتْ به وكانت قطعيَّة الثبوت، أمّا حديثُ رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فمِنها ما هو (قطعي الثبوت)؛ كـ (القول بأن صلاة الظهر أربع ركعات)، ومنها ما هو (ظنّيُّ الثبوتِ وهو ما نُقِلَ بحديثٍ حسن أو صحيحٍ)، فمَساحة الظنّ بالحسن أكبر من الصحيح؛ لأنها أقربُ للتواتر.

إنَّ العالِم الخبير بمكنونات هذا الكون هو اللهُ تعالى، أمّا غيرُه فيتدارك عِلمَه بعد حصول العلم وانكشافه، فمَن تساءل عن مصيره بعد الموت سيرى ذلك عياناً لحظةَ حُدوثِ موته؛ وعندئذٍ لن يكون مجرَّد خبرٍ هو أقرب للأساطير؛ بل ذلك وعدٌ آتٍ يقيناً؛ سواء (استعجَلُوه أمْ نَسُوه). يقول المولى في سورة النمل: قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾.

لقد بيّن اللهُ تعالى في مُحكَمِ آياته جزاءَ مَن لا يؤمن بغيبيَّاته؛ فجَعلَ أشدَّ العُقوباتِ لأجْل ذلك، وعلى كُلِّ إنسان أن يقي نفسَه هذا الخطرَ الجسيم؛ وإلّا عاش حياةً قصيرة، ثُمَّ يخلُد إلى نارٍ حامية يَصلى خالداً فيها ما شاء اللهُ تعالى.

لكنْ ماذا إذا عمَّ هذا الخطرُ الكثيرَ من الناس فلمْ يؤمنوا باللِه تعالى ربّاً؟

لقد أعدَّ اللهُ لأولئك عذاباً في الدنيا كـ (الفتن والابتلاء)، وهُم في الآخرة سيصلَون ناراً حامية خالدِين فيها. لكنَّ اللهَ توعَّد الناسَ الغافلين - في الدنيا - سواء أكانوا (مذنبينَ أمْ ساكتِينَ عن الخطأ بما فيهم المصلِحون)، توعَّدَهم بعذابٍ أشملَ وأكبر لا يُبقي ولا يَذر.

ضرورةُ درءِ الخطر الأكبر (المحدِق بالناس):

إذا عمَّ الضلالُ والإفساد وانتشر وصارَ جَماعيّاً؛ بأنْ أصبح الناسُ كلُّهم أو أغلبُهم كذلك، أخذَهم اللهُ تعالى بألوانٍ من العذاب؛ لذلك وجبَ على الناس أن تأمَن هذا الخطر العميم؛ لأنه تهديدٌ لهم كلِّهم حتَّى لو كان فيهم صالحون وأتقياء.

دخلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مرَّةً على زينبَ رضي اللهُ عنها فَزِعاً، وهو يقول: (لا إلهَ إلاّ اللهُ، وَيلٌ لِلعرَب مِن شرّ ما اقتربَ، فُتح اليومَ مِن رَدْمِ يأجوج ومأجوج مِثل هذا). وحلَّق بإصبعِه وبالتي تليها، فقالتْ زينبُ: فقُلْت: يا رسولَ اللهِ، أنهلكُ وفِينا الصالحونَ؟ قال: (نعمْ؛ إذا كَثُرَ الخَبَثُ)؛ أيّ: انتشر الخبثُ؛ فهذا بمثابةِ خطرٍ داهم لا يدرؤه إلّا التزامُ الناسِ بأوامر الله ونواهيه.

لقد سبق هذه المرحلةَ من العُقوباتِ الجَماعية ترغيبٌ للناس بأنَّ العذابَ غيرُ واقعٍ بهم إنْ استجابوا لأوامرِ الله ونواهيه، ثمَّ تلاها إنذارٌ وتهديد؛ فابتلاءٌ أشبهُ بعذابٍ جزئيّ؛ لكنَّ النهاية بالأخْذ بألوانٍ من العذاب.

إنَّ إدارة المخاطر تستوجبُ أخْذَ العِبَر من أخطاء الماضين ممَّن سبقونا من الناس، وقد ذكرَ الله لنا قَصصَهُم لنَعتبِر بهم، وما تلك إلاّ بياناتٌ تاريخية عن أُمم أُخِذت بألوان من العذاب؛ فإنْ اتَّبعنا ما ساروا عليه حقَّ علينا ما حق عليهم من عذاب.

لذلك شرّع اللهُ لنا: الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ليكون أداةَ تطويرٍ وتصحيح للمسار، فالأمرُ بالمعروف فيه (تحسينٌ وتطوير) للحال، وهذا ضامنٌ لاستمرارية عَيش الناس في هذه الأرض على نحوٍ أفضلَ، بينما يُصلح النهي عن المنكر ما أفسدَه الناسُ؛ كَيلا تَصِلَ حالهُم إلى درجة الفساد العريض. وقد ذمَّ اللهُ تعالى من لا يأمرُ بمعروفٍ ولا ينهى عن مُنكَرٍ؛ فقال: كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ المائدة.

إنّ أُولي النُّهى وأصحاب الرُّؤى والتخطيط الاستراتيجي يعلمونَ أنَّ مَن سار على دربٍ مِعوَّجٍ ومنحرف فسيصلون لما لا يُحمدُ عُقباه؛ لذلك ينبغي على أولئك الراشدينَ التدخُّل بـ (النُّصح والإرشاد)؛ لتصويب الخطأ، والحثِّ على اتِّباع الأفضل؛ فإنْ تقاعسوا شملَهم العذابُ الجَماعي ولو كانوا مُتَّقِينَ ملتزمين؛ لأنَّهم أضحَوا ممَّن آمنَ ولم يعمل الصالحات، وما الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر إلّا مِن ذلك؛ حتَّى أنَّ بعض العلماء اعتبرَه الرُّكنَ السادس للإيمان بالله؛ لأهميته في درْء المخاطر، وتجنيب الناس ما يُودي بحياتهم فيُنهيها بطريقةٍ خاسرة، ثم يُتبعها آخرةً خاسرة أيضاً؛ فيستحقُّون عذابَ الخُلد في النار.

من أجل ذلك طلب اللهُ تعالى من الناس أن ينفر بعضُهم ليتفقَّهوا في الدِّين ليكونوا مُنذِرين؛ فيكونون أدواتِ إنذارٍ مبكر. وتُعتبَر أدوات الإنذار المبكر جُزءاً حيويّاً ومهمّاً من إدارة المخاطر، مهمَّتها إعادة الناس لما يجب أن يكونوا عليه من الصلاح قبلَ وقوعِهم في المحذور، فيجتنبون الوقوعَ في الخطر الذي ينجم عنه العقوبة، ويَحذَرونه. يقول المولى معلِّماً الناس كيفية ذلك: فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (التوبة: ١٢٢).

وبما أنّ الناسَ في الأغلبِ ما تتذكّر مآسيها أكثرَ ممّا تتذكّر أفراحَها وسعادتها، فإنَّ التحذير الذي فيه ترهيبٌ من شدَّة ما قد يحصلُ هو أكثر اعتباراً لهم؛ حيث يغلب النسيانُ عليهم. لذلك رغَّب اللهُ تعالى عبادَه ووعَدهم بالخير إذا ما ابتعدوا عن الظلم؛ كـ (الكفر به والإشراك فيه وظُلم الناس)، إلّا إن استغفروه، وأصلحوا، وفرُّوا إليه تعالى. أمّا كيفيّةُ ذلك فيكون:

بالعيشِ الآمن الذي لا خوفَ فيه، فمَن عاش في (غابةٍ مُوحِشة، أو صحراءَ مُقْفِرة، أو حَربٍ مُزلزِلة)، عرفَ طعمَ الأمن، ومَن عاش في مرضٍ يُهدِّد حياته؛ عاش خائفاً، فأولئك يبحثون عن أمنٍ من المخاطر التي تُهدِّد حياتَهم؛ فلا لذَّة في (طعامٍ أو شراب)، ولا راحةَ لمن كان خائفاً غيرَ مطمئنٍ؛ لذلك يُعتبَر الأمن من الخوف أوَّل حاجةٍ من الحاجات الأساسية التي يبحث عنها الإنسانُ، ويعمل جاهداً لتحقيقها. ومن ذلك قولُه تعالى: وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ سورة قريش.

بالهداية لِسُبُلِ الخير، فشتَّان بين مَن (يبحث ويُنقِّب) عن شيءٍ، وبين من يَجِدُه سهلاً هيّناً؛ فالأوّل يحتاج (بحثاً وتمحيصا)، قد يعثر عليه أو قد لا يُفلِح بإيجاده؛ لذلك فمَن نوّر اللهُ بصيرتَه وهداه للأمور غيرمَن أعمى بصيرتَه فتراه يهيم على وَجْهِه فلا يعرف كيف يسير، فالتي تغزلُ الغزْل ثمَّ تنقضُه إنما تضيع جُهدها، وقد نهانا الله أن نكون كذلك، قال عزّ و جلَّ: وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا (النحل: ٩٢)، كما نهانا أن نكون ممَّن يُخربون بيوتَهم بأيدهِم فقال: وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (الحشر: ٢)؛ فهذا كلُّه من الهداية.

بمنحِهم حياةً رغيدة دون مشقَّةٍ وعذاب.

بأن يَرزقَهُم ماءً غدقاً؛ فلا حِرمان من الماء ولا نُقصان فيه ولا بماهيَّته، وهذا يُجنِّب الناسَ أزماتِ المياه التي تُعدُّ أخطر الأزمات؛ فبزوالِ الماء من مكانٍ ما، تزول معه الحياةُ مباشرة. وما بحثُ العلماءِ عن كوكبٍ فيه ماءٌ إلّا بقصد أن يجدُوا فيه حياةً صالحة للناس.

بأن يَرزقهُم رغداً من كلِّ مكانٍ؛ فالرزق من نباتٍ وحيوان ممّا يأكلُ الناسَ وينعمون به؛ فإنْ كان الحصول عليه سهلاً انخفضت تكاليفُ إنتاجه؛ فإنْ جاءهم من كل مكان انخفضت تكاليفُ نقلِه؛ فإنْ كان طيّبا لذيذا سَعِدَ الناسُ بمأكلهم وأَمِنوا الجوعَ وطاب لهم الأكلُ والطعام؛ فتلذَّذوا به دون شقاءٍ ودون مَزيدٍ من الُجهد وبذلٍ للمال.

لقد مَنّ اللهُ تعالى على قريشٍ بالأمن وعدم الجوع فجعلَ لهم تجارةً تكفيهم حاجاتِهم الأساسية، وطلبَ منهم عبادتَه تعالى دون إشراكٍ به إلهاً واحداً، فقال: لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ سورة قريش. روى المنذريُّ في الترغيبِ والترهيب - في هذا المعنى - قولُ رسولِ الله صلّى اللهُ عليه وسلم عن تعريف الدُّنيا بحذافيرها: مَن أصبحَ آمِنًا في سِرْبِه مُعافىً في بَدنِه عِندَه قُوتُ يَومِه فكأنَّما حِيزَتْ له الدُّنيا بحَذافيرِها.

وبناءً على ما سبقَ؛ فإنّ رايات الإنذار بالخطر ودرجاته هي كالآتي:

الترغيبُ بِعَدمِ العذاب.

الترهيبُ، ودرجاتُه هي:

الابتلاء.

الإنذار والتهديد.

العذابُ الجُزئيّ.

تحقُّق الخطر والأخْذ بالعذاب: حيث بات وقوعُ العذاب أمراً لا مفرَّ مِنه؛ كـ (الخسْف والإهلاك والغرق والتدمير والأخْذ بالسِّنين والرجْفة، والريح،..).

(١) الترغيبُ بِعَدمِ العذاب:

قد يرفعُ اللهُ تعالى العذابَ عن الناس إنْ دخلُوا في الإيمان، كقومِ يُونُسَ عليه السلام الذين كشفَ عنهم العذابَ لمّا آمنوا؛ فمتَّعهم بعَيشِهم، قال الله تعالى: فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿٩٨﴾ يونس. وهذا ليس حصريّاً لقوم يونُس عليه السلام؛ بل هو لكلِّ البَشر، يقول الله تعالى: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ الأعراف.

كما أنّ الشُّكر ممّا يجزي اللهُ به رَفْعَ العذاب الواقع على الناس، يقول اللهُ تعالى: مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ النساء؛ بل قد يُدخلهم ذلك جنَّاتِ النعيم، ولأكلوا من فوقهم ومِن تحت أرجُلِهم، قال الله تعالى: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ المائدة.

كذلك فإنّ الاستقامةَ على ما أمرِ اللِه به مؤدَّاه عيشٌ رغيد، وقد يكون ذلك فتنةً، فإنْ أعرضَ الناس؛ فالعذابُ موعدُهم، قال اللهُ تعالى: وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ الجن. لكنْ حتَّى لو كان الناسُ في عيشٍ هنيٍّ؛ فكفروا، فسيُذيقُهم اللهُ لباسَ الجوع والخوف، قال الُله تعالى: وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ النحل.

والعذاب لن يَطالَ الناسَ مادام رسولُ الله صلّى الله عليه وسلَّم مُقيماً بينهم، ولن يَطالهم ما طبَّقُوا سُنَنَه، ولن يَطالهم ما استغفَروا الَله تعالى، قال تعالى: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ الأنفال.

ولن يَطالهم العذابُ والناس مُصلِحُون، قال تعالى: وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ هود

وقد خيّر اللهُ تعالى الناسَ بين الاستغفار أو العذابِ أسوةً بمَن سبقَهم من الأمم: وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ الكهف؛ بل إنّ الأمنَ سيكون لمن اهتدى وابتعدَ عن الظلم، قال الُله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ الأنعام

(٢) الترهيبُ:

إنّ الترهيبَ هو شكلٌ من أشكال الإنذار بالخطر، ويكون بالابتلاء، ثمَّ بالإنذار والتهديد، ثمَّ بالعذاب الجزئيِّ الذي لا يقضي على الناس في هذه الدنيا؛ وذلك لعلَّ الناس تنتبِه من غَفلَتِها؛ فتعود للطريق الصحيح. وكل ذلك قبل تحقُّق الخطر وأخْذهم بالعذاب وانتهاء حياتهم الدُّنيا.

أ. التخويف:

يرسل الله تعالى آياته للناس تخويفاً لهم ليرتدعوا ويعودوا إلى تصرفاتهم الصحيحة، يقول الله تعالى: وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (الإسراء: ٥٩).

ب. الابتلاء:

إنّ الظلامَ الحالك؛ سواءٌ في (البرّ أو في البحر) مخيفٌ للناس، والظلام جُنْدٌ من جُنْدِ الله تعالى، ويخافُه الناس ويرهبونَه، فإنْ وقع عليهم، جأروا لخالقِهم تضرُّعاً وخفية؛ لأنّه القادر على أن يُزيل هذا الخطرَ الجسيم، وهذا تخويف للناس ليعودوا عن غيّهم وضَلالِهم. قال الله تعالى: قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الأنعام.

إنّ هذا الابتلاءَ إنما تنبيهٌ للغافلين قبلَ وُقوعِهم في الهلاكِ المُدمِّر، يقول تعالى: ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ الأنعام.

ومِن الابتلاء والفتنة وقوعُ الزلازلِ والرجْفة، وهذا ما حصل مع موسى عليه السلام وقومِه، وموسى عليه السلام يُدرك أنّ مآل فِعْل السفهاء هو الهلاك، فتضرّع لربّه راجياً رحمَته، قال تعالى: وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الأعراف.

إنّ الفتنة لا تُصيب الظالمينَ دون غيرِهم؛ بل إنّ البلاءَ يعمُّ الجميعَ؛ لأنّ العقلاءَ لم يعملوا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - كما أسْلَفنا -، قال تعالى: وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ الأنفال. وقد حُرم اليهودُ من نِعَمِ الله تعالى باحتيالهم على أوامره، فأصابهم الابتلاءُ بفسقِهم، قال تعالى: وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ الأعراف.

ج. الإنذارُ والتهديد:

إنّ لم يَعُدْ الناسُ عن غَيّهم رغم الابتلاء، جاءهم الإنذارُ والتهديد؛ فالتهديد بالخسْف وغيره من ألوانِ العذاب هو أقلُّ شأنا ممّا يليه من العذاب المنتظَر فيما لو استمرَّ الناسُ على ما هُم عليه، فالخلودُ في نار جهنَّمَ أشدُّ وطأ من الإنذار والتهديد، يقول الله تعالى: أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ الملك، ويقول الله تعالى: أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ النحل.

وتُعتبَر آثار الأقوام الغابرين درْساً يجبُ الاعتبار به، فقد دمَّر اللهُ عليهم، يقول الله تعالى: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ محمَّد.

كما أنّ الإعراضَ عن ذِكْر الله تعالى مؤدَّاه عَيشاً غير هنيٍّ في هذه الدُّنيا، يقول تعالى: وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ طه.

وقد هدَّد اللهُ قوم نوحٍ عليه السلام بالغرَق، فقال: وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ هود.

وإنّ أَخْذَ الله للظالمين هو أخْذٌ شديد وأليم، وهذا تهديدٌ لهم، يقول الله تعالى: وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ هود.

وضرب اللهُ الأمثالَ لأقوامٍ أُهلكوا بشتَّى ألوان العذاب كمَطر السَّوء، والتدمير، وغيره، قال الله تعالى:

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ الفرقان.

فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ النمل.

وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ الإسراء.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ غافر.

ج. العذابُ الجزئيّ:

إنْ لم ينتبَّه الناسُ من غفلتهم بعدما سبقَ بيانُه، أتاهم عذابٌ غيرُ مُدمّر، فالفسادُ المؤذي للطبيعة ولمن فيها يُسبِّب عدمَ الراحة لِسكَّان الأرض ويُزعجُهم ويقضُّ مضجعَهم؛ فينتشر المرضُ، وتزداد الأوبئةُ المعدِية وما شابهه، يقول الله تعالى: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ الروم. وقد يكون العذابُ بتقطيع الناس وتفريقهم في الأرض، يقول الله تعالى: وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ الأعراف.

كل ذلك أسماه اللهُ تعالى بالعذاب الأدنى، فقال: وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ السجدة.

(٤) تحقُّق الخطرِ والأخْذ بالعذاب:

هذه هي المرحلة الأخيرةُ للظالمين، محقٌ من الحياة الدنيا وتحوُّل نحو المجهول؛ حيث ينتظرهم عذابُ الخلود، يقول الله تعالى: فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ العنكبوت.

لذلك تعدَّدت ألوانُ العذاب:

فمنهم مَن أُغرق: فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ يونس.

ومنهم مَن خُسِفَ بهم: أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ سبأ.

ومنهم مَن أُخِذ بالجوع: وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ الأعراف

ومنهم مَن قُصِمَ: وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ الأنبياء.

ومنهم مَن أُهلِكَ بالطاغية: كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ الحاقة.

ومنهم مَن أُهلِكَ بريحٍ عاتية: وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ الحاقّة.

ومنهم مَن أُهلِكَ بريحٍ عقيم: وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ الذاريات.

ومنهم مَن أُهلِك بالحجارة المسوَّمة: قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ الذاريات.

ومنهم مَن أُهلِك بالصاعقة أو الصيحة: وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ الذاريات، وقوله تعالى: إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ القمر.

ومنهم مَن أُهلِك بالطُّوفان والجراد وغيره: فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ الأعراف.

إنّ إدارة المخاطر هي جزءٌ مهمٌّ من الإدارة الاستراتيجية وقراراتها لا يُمكِن إغفالها أو إهمالها؛ فإذا ما كانت إدارة مخاطر الأعمال ضرورةً، فمِن الأشدِّ ضَرراً التغافلُ عن إدارة مخاطر الحياة والوقوع في خطرِ تدميرٍ يُنهي هذه الحياةَ، ثمَّ يتلوها خلودٌ في نارٍ حامية.

لقد تبيَّن لنا ممَّا سبقَ:

أنّ اللهَ قد علّمَ الناسَ أُسسَ إدارةِ المخاطر - صغيرها وكبيرها -، وذكرَ الأدوات العِلمية للتحكُّم بها، وللتحوُّط منها.

أنّ الظنُّ بجميع درجاته بما فيها الشك مفيدٌ في البحث العلميّ؛ بل هو أهمُّ أداةٍ من أدوات تحقيقه للوصول للحقائق العلمية التي تُقاربُ اليقيَن.

أنّ الظنَّ بمعنى الشك وبما يَقربُ منه لا يصلح للإيمان بالله العظيم؛ بل لا بدَّ من اليقين بدرجاته للوصول إلى ذلك، ففي هذه الحالة لا يُغني الظنُّ من الحق شيئاً. يقول الله تعالى في سورة يونس: وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾.

وقد أرسى الله تعالى هذه القاعدة بعد محاكاة عقلية فريدة؛ دلّل فيها عز وجلّ على أنه سبحانه وتعالى هو الحق وليس بعد الحق إلا الضلال، فقال عزّ من قائل: فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾. وكانت المحاكاة بطرح أمرين هاميّن:

أولاً: بطرح إشكالية علمية تجريبية قابلة للتحقق لمن شاء أن يتحقق من صحتها؛ تتضمن تساؤلاً عمن يبدأ الخلق من عَدَمٍ ثم يُعيده، هل من فاعلٍ غير الله تعالى؟ ويجيب الله عن ذلك؛ بأنه سبحانه وتعالى هو الخالق والقادر على أن يبدأ

الخلق ثم يُعيده، فأين تُصرفون أيها المكذبون المشككون؟ قال تعالى: قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾.

ثانياً: بطرح إشكالية علمية عقلية، يُمكن للعقل السليم استنباط نتيجتها بالمحاكاة والتفكير والتدبر؛ فقال عزّ وجلّ: هل من شركائكم من يهدي للحق؟ ويجيب الله عن ذلك؛ بأن الله يهدي إلى الحق؛ وعليه فمن هو الأحق بالاتباع؟ قال تعالى: قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ۚ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾.

وبذلك أحاطت الآيتان بمناهج التفكير المنطقي تجريباً واستنباطاً.

فسُبحانَ اللهِ تعالى القائل في كتابه: مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ (الأنعام: ٣٨).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

اللهم علمنا ماينفعنا وانفعنا بما علمتنا

حماة (حماها) الله في ١١ شعبان ١٤٣٨ هـ الموافق ٧ أيار/مايو ٢٠١٧ م

المراجع:

[i] صحيح مسلم.

[ii] السيوطي، الأشباه، ص ٥٦.

[iii] التفسير الميسر، بتصرف.

[iv] تفسير القرطبي، بتصرف.

[v] قنطقجي، د. سامر، رسالة دكتوراه، جامعة حلب، ٢٠٠٣.

الغزالي، أبي حامد، المنقذ من الضلال، تحقيق محمود بيجو، مطبعة الصبح بدمشق، ١٩٩٢. ص ٣٢-٣٣.

الشاطبي، الموافقات، ج ١، الصفحات ١٩-٧٠.

البوطي، هذه مشكلاتهم، ص ١٢٣.